سمات نثر الشاعر أبي مروان الجزيري الأندلسي

أ.فورار أمحمد بن لخضر
جامعة محمد خيضر بسكرة– الجزائر

الملخص :

تصدر المنصور بن أبي عامر ريادة مجالس الأدب في الأندلس في بلاطه، وفرسانها وزراؤه، ومنهم الوزير الكاتب الجزيري، الذي عرّفنا بعصره وسيرته الذاتية، وآثرنا دراسة نثره دون شعره، وأفضت هذه الدراسة إلى أهم السمات، وهي: جدة فن الرسائل الوصفية، والمفاضلة بين أكثر من زهرة، والتنوع بين النثر والشعر مع مراعاة التركيز والإيجاز وبأسلوب سهل وواضح، ومقياس الجودة يكمن في الارتجال غالبا. بهذا نال الجزيري سبق التأسيس لفن الرسائل الوصفية بخاصة، في نهاية القرن الرابع الهجري، وساهم في استقلال النثر الفني الأندلسي عن التقاليد المشرقية، شكلا ومضمونا، إلى حد كبير.

Résumé :

AL MANSOUR IBN ABI AMEUR était le doyen des cercles des lettres andalouses. Durant la fin du 4^{e} siècles hidjri.

Parmi les célèbres et les ministres de son époque; on trouve ALJAZIRI le ministre et écrivain, que nous avant déterminé son autobiographie. Nous avons privilégie sa prose, sans la poésie. Et c'est ainsi que l'étude a bien donné des caractères suivant:

Les lettres descriptives, la comparaison, la diversité entre prose et poésie avec une concentration et un style facile et claire, ainsi que la critère de qualité sur l'improvisation.

Avec quoi ALJAZIRI fondait l'art des lettres descriptives, et contribuait largement dans l'autonomie de la prose artistique andalouse en vus les traditions orientales en styles et contenus.

مقدمة تاريخية موجزة :

يتناول هدا البحث سمات نثر الشاعر أبي مروان الجزيري الأندلسي (394هـ)، وقبل الحديث عنها نعرف بإيجاز بعصر الشاعر فترجمة له وعلاقته بحكام عصره.

عاش أبو مروان الجزيري في القرن الرابع الهجري[1]، الذي يعد أزهى قرون الحكم العربي في الأندلس وأقواها على الإطلاق، وقد بدأ بتولي عبد الرحمن الناصر لدين الله الحكم سنة(300هـ-350هـ)، وهو أول خليفة أندلسي يتلقب بهذا اللقب الخطير لوجود خليفة المسلمين في المشرق، وقد أعلن نفسه خليفة سنة 316هـ. من أهم منشآته العمرانية بناؤه لمدينة الزهراء.

تولى الحكم بن الناصر بعد أبيه الخلافة، وتلقب بالمستنصر بالله، وقد سار على نهج أبيه في توطيد أركان الحكم، وما يؤثر عنه أنه كان محبا للعلم وأهله، فازدهرت الحياة العلمية في عصره أيما ازدهار، إذ أسس المدارس وأسبغ العطاء على العلماء في مختلف العلوم وأنشأ مكتبة ضخمة جمع فيها نفائس من كل حدب وصوب، ونفقت في عهده سوق الآداب.

يخلف هشام المؤيد بالله أباه بعد وفاته سنة 366هـ-399هـ، وهو لم يزل بعد في سن الصبا، وكان المتغلب على الأمور محمد بن أبي عامر[2]، الفتى الطموح الذكي الداهية الذي وفد من أعمال الجزيرة الخضراء، ((ورد شابا إلى قرطبة فطلب العلم والأدب وسمع الحديث، وتميز في ذلك، وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور))[3].

ترقى محمد بن أي عامر في مناصب عدة في عهد الخليفة الحكم، وبعد وفاته استطاع التقرب من السيدة صبح أم الخليفة الصبي هشام، واستمالها وارتقى أعلى المناصب في الدولة حتى أصبح منافسا للحاجب المصحفي[4]، ثم نكل به، وزج به في السجن الذي قضى فيه زهاء خمس سنوات إلى أن أدركه الموت في المطبق بالزهراء سنة 372هـ، ويقال:((إنه دس له شربة سم قضت عليه))[5].

بذلك تخلص محمد بن أبي عامر بمساعدة السيدة صبح من أشد منافس له قوة وبأسا، ومحنة المصحفي وسجنه برز للمرة الأولى ذكر الجزيري كما سنرى.

ثم تفرغ لكافة منافسيه حتى أزالهم، يقول ابن الخطيب:((ولم يبق يدا يحذر بطشها إلا شلها، ولا عينا بريبة نظرُها إلا فقأها... قال بعض من تعنَّى بأخباره: كان آية من آيات الله فطرة دهاء ومكر سياسة، عدا بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم، ثم بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه))[6].

انفرد ابن أبي عامر بالسلطة، استقر في مدينته الزاهرة سنة370هـ، وتسمي بالحاجب المنصور لدين الله، وقام بشؤون الدولة كلها، وظلت الدولة منيعة في عهده لشدة هيبته وكثرة غزواته

التي فاقت الخمسين وانتصر في جميعها، إلا أنه لم يجرد هشاما رمز الأمويين من الخلافة الشرعية، بل أوصى ابنه عبد الملك المظفر بسلوك نفس السبيل بعد وفاته التي كانت زامنت غزوته الإٍخيرة في مدينة سالم سنة392هـ، لكن ابنه عبد الرحمن شنجول خالف الوصية، واستأثر بالخلافة، فأشعل بذلك نار الفتنة، ولقي مصرعه سنة399هـ[7].

ورغم استبداد المنصور وانفراده بالحكم، إلا أنه رعى الحركة العلمية والأدبية، فكثر الشعراء والأدباء في دولته، أما الشعراء فإنه كان لهم((في أيام المنصور أبي عامر ديوان يرزقون منه على حسب مراتبهم))[8]، ويصحبهم معه في غزواته لتسجيل ما يحققه من انتصارات[9].

وأما العلماء والأدباء فإن للمنصور مجلسا يعقد كل أسبوع في قصره بالزاهرة يجتمعون فيه للمناظرة بحضرته متى كان مقيما بقرطبة[10]، ومدارسة مسائل اللغة والأدب، وبحث نثره ونقد شعره[11]، والزهراء والزاهرة كانتا قرطي قرطبة التي كانت إليها الحلة في الرواية والعلم[12]، ومع العقد الأخير من القرن الرابع الهجري توفي شاعرنا وأديبنا أبي مروان عبد الملك الجزيري.

حياة أبي مروان عبد الملك الجزيري:

1 – اسمه ونسبه:

أجمع المترجمون لأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني الأزدي على نسبته إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، فهذا ابن الأثير يقول:(هذه النسبة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس ينسب إليها الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري))[13].

أما نسبة الخولاني فقد ذكرها ابن خاقان في المطمح[14] بنسبة الجزيري إلى بني خولان، وعنه نقل المقري في النفح[15] و((خولان بن عمر و بطن من كهلان من القحطانية، وهم بنو خولان بن عمرو ابن مالك بن الحارث بن مرة بن ابن زيد بن يشجثب بن عضريب بن زيد بن كهلان بن سبأ))[16].

وكذلك نسبه ابن بشكوال[17] إلى الأزد.

والأزد : قبيلة من أشهر قبائل العرب وأعظمها تنسب إلى الأزد بن الغوث بن مالك بن كهلان من القحطانية[18].

وترد شهرته في المصادر الأندلسية والمشرقية التي ترجمت له أو وثقت شيئا من شعره بصيغتين؛ الجزيري وابن الجزيري، والصيغة الأولى هي الغالبة، فابن الأبار والمقري وابن سعيد، يذكرونه بصيغة أبي مروان الجزيري[19].

ويذكره المراكشي، ومرة أخرى ابن سعيد بأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري، وهي أهم الصيغ[20]، كما يذكره ابن بسام بالصيغتين معا ففي الأولى ينعته باسم أبي مروان الجزيري[21]، وعبد الملك الجزيري[22]، والجزيري[23]، وفي الثانية ينعته بأبي مروان بن الجزيري[24]، وابن الجزيري[25]،

إلا أن ما يؤكد كونه الجزيري لا ابن الجزيري أنه حينما ذكر خبر مقتله وشيئا من شعره ونثره عنون له باسم أبي مروان الجزيري[26].

ولعل ابن الجزيري المقصود به ابنه عبد العزيز بن عبد الملك المعروف بابن الجزيري، كاتب وأديب، روى عن أبيه قصيدته في الآداب والسنة[27].

يتضح–مما تقدم– أن بعض المترجمين وبخاصة المشارقة لم يفرقوا بين الابن والأب، ولا يعتقد أن يتخذا لقبا واحدا، وأكثر المترجمين له بالأندلس يذكرونه بالجزيري من دون ابن، ولذلك كله يرجح أن يكون اسمه هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري.

2 – مولده ونشأته :

لم تذكر المصادر التي ترجمت لعبد الملك الجزيري سنة ولادته، وذكرت أن مقتله كان سنة394هـ، فبسنة وفاته يمكن تقريب الأمر قليلا بالاعتماد على قصيدته الرائية التي نظمها في سجن المنصور أبي عامر، وذكر فيها أنه فقد الشباب وطار غرابه فشاب[28]:

فقد شاب همًّا في اقتبال شبابه إن كنت شبتُ مع الشباب المدير

إن أول ظهور الشاعر الكاتب أبي مروان الجزيري كان في بداية عهد الحاجب المنصور الذي استولى على الحكم، وتخلص على منافسه الحاجب المصحفي –كما تقدم– فطلب منه أن يرد على أبيات استعطفه بها الحاجب المصحفي في سجنه، ولم تلق قبولا لديه، فلا بد أن الشاعر الكاتب كان في سنٍّ تؤهله لذلك، ويشير جامع شعره بأنه لم يجد له ذكرا في عهد الحكم المستنصر بالله (350هـ .360هـ)[29]، ومن ذلك يمكن التكهن بأنه ولد في أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجري ولعله في أثناء العقد الرابع أو الخامس منه.

وأما مكان مولده فإنه يرجح من نسبته ((الجزيري)) إلى الجزيرة الخضراء التي نسب إليها عند كل المترجمين له، وحينما انتقل منها إلى قرطبة لقب بالجزيري تذكيرا بأصله، وما يوضح ذلك أن ابن سعيد خصه في كتابه في قسم ((الحلة الحمراء في حلى الجزيرة الخضراء))[30].

لا نعرف شيئا عن نشأة الجزيري، طفولته وشبابه وتعليمه وعلمه، إلى أن أصبح مؤهلا ليكون بمثل هذا القدر من العلم والأدب ويتبوأ منصب كبير الكتاب لدى الجاجب المنصور بن أبي عامر، وصاحب ديوان إنشاء في أيامه، ومن ثم وزيره ولابنه عبد الملك المظفر بعد أبيه[31]، ويشير بعض من ترجموا له بأنه((وزير من وزراء الدولة العامرية، وكاتب من كتابها))[(32)] ووصفه إحسان عباس في ترجمته له بأنه ((من أبلغ كتاب الأندلس في دولة المنصور بن أبي عامر))[(33)]، فلا بد أنه نهل من العلم الكثير إلى أن بلغ المرتبة العلمية التي وصفه الحميدي بها، وبالعلم حظي لدى المنصور بالوزارة والكتابة على عادة حكام الأندلس .

أغفل المترجمون له حياته الأولى، وأشاروا إلى أنه ((سكن قرطبة)) [34] أو أنه ((نزيل قرطبة))[35]، وخصه الزركلي بأنه ((من أهل قرطبة))، ولا عجب في انتقاله إلى قرطبة، لأنها كانت مقصد العلماء والأدباء والشعراء، وعاصمة الخلافة التي تستأثر بالطامحين في السلطة، وابن أبي عامر خير دليل على ذلك في هذه الفترة التي نتحدث عنها ، فصادف الحافزان رغبة الجزيري، فشد رحاله إليها واستقر فيها.

لم يشر المترجمون للجزيري متى سكن قرطبة، ولكننا يمكن أن نستنتج – مما تقدم – أنه انتقل إليها بعد أن اكتسب القدرة المعرفية والعلمية، ونبغ في قول الشعر، وامتلك أدوات الكتابة النثرية، وبهذه المؤهلات استطاع أن يتقرب من المنصور بن أبي عامر ويتبوأ مناصب عدة لديه وابنه المظفر من بعده .

3 – الجزيري في عهد الحاجب المنصور:

ترتبط محنة الحاجب المصحفي –السالف الذكر– بأول ظهور الجزيري مع الحاجب المنصور بن أبي عامر، فقد استعطف المصحفي السجين الحاجب المنصور في مقطوعته الشعرية يبدي فيها الإذعان والندم مستغلا المثل القائل العفو عند المقدرة، وهو ما كان العرب يعتزون به، محاولا في نفس الوقت إثارة شفقته على شيخوخته، يقول [36]:

هبني أسأتُ أين العفو و الكرمُ إذ قادني الإذعان و الندمُ
يا خيرَ من مُدَّت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغتَ في السُّخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استُرحموا رحِموا

فما كان من الحاجب المنصور إلا أن ((أمر عبد الملك بن إدريس أن يجاوبه عن هذه الأبيات، فقال:

الآن يا جاهلا زلَّت بك القدم تبغي التكرُّم لما فاتك الكرمُ
أغريتَ بي ملِكا لولا تكرُّمه ما جاز لي عنده نطق ولا كَلم
فايأس من العيش إذ صرت في طبق إن الملوك إذا ما استُنقموا نقموا
نفسي إذا سخطتْ ليست براضية ولو تشفع فيك العُرْب والعجم))[37].

وقد صدمه بهذا القرار النهائي بما يؤكد اليأس والاستسلام الأبدي، ويعلق النوشي على هذه الحادثة بقوله: ((ويبدو أن المنصور كان مصمما على أن يبلغ بمأساة الوزير غايتها، فاصم أذنيه عنه، ورد عليه بشعر أنشأه عبد الملك الجزيري (ت سنة 394هـ) فيه كل معاني التيئيس والقسوة والتشفي)) [38].

هذا الرد على الحاجب المصحفي من قبل الجزيري دفعه إلى البروز في عالم الأدب والسياسة –زمن المنصور بن أبي عامر– ويلفت الأنظار نحوه في المناسبات التي يحضرها، من

ذلك ما أورده ابن بسام عنه، يقول: ((ودخل يوما صاعد [39] على المنصور في يوم مطير وعليه ثياب جدد وخفٌّ طريّ، فمشى على حاشية الصهريج لازدحام مَنْ حضر فزلق وسقط في الماء، فضحك المنصور وأمر بإخراجه، وكاد البرد يأتي عليه، فلما نظر إليه أمر بخلع ثياب له، وأدنى مجلسه ثم قال له: يا أبا العلاء: هل قلت في سقطتك شيئا، فاطرق ثم قال:

شيئان كان في الزمان غريبة ضرط ابن وهْب ثم زلقة صاعد

فاستبرد ما أتى به، وكان أبو مروان الجزيري حاضرا، فقال له يا أبا العلاء: هلا قلت:

سروري بغرتك المشرقهْ وديمة راحتك المغدقهْ

ثاني نشوان حتى هويـ ـتُ في لجة البركة المطبقه

لئن ظل عبدك فيها الغريق فجودك من قبل ذا أغرقه

فقال له المنصور: لله درك يا أبا مروان، قسناك بأهل العراق ففضلتهم فبمن تقاس بعد، فانهض الجزيري للشرطة)) [40].

لقد حظي الجزيري بمنصب رئيس الشرطة، وهو منصب سياسي سامي، ومن ثم ارتقى في المناصب السياسية والديوانية حتى تقلد ((ديوان الإنشاء))[41]، ويشير ابن خاقان إلى ذلك : ((تولى التحبير أيام المنصور والإنشاء، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء، ولبس العزة مدتها، ضافية البرود، وورد بها النعمة صافية الورود، وامتطى عن جياد التوجيه أعتق من لاحِق والوجيه، وتمادى طَلَقه، ولا أحد يلحقه)) [42].

وقد أشار الحميدي أنه وزير من وزراء الدولة العامرية، ويؤكد المراكشي ذلك بقوله عن المنصور: ((استوزر جماعة... منهم: الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري))[43]، ويضعه المقري من وزراء المنصور المشهورين، يقول: وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني))[44].

تميز الجزيري بالبداهة واللباقة والظرف ما مكنه حتى أصبح من المقربين من الحاجب المنصور، بل ومن ندمائه، فهذا ابن خاقان يصوره في مجلس المنصور مع أدباء وعلماء وغلمان، يقول: ((ودخل ليلة على المنصور، والمنصور قد اتكأ وارتفق، وحكى بمجلسه ذلك الأفق، والدنيا بمجلسه ذلك مسوقه، وأحاديث الأماني به منسوقه، فأمره بالنزول فنزل في جملة من الأصحاب، والقمر يظهر ويحتجب في السحاب، والأفق يبدو به أغرَّ ثم يعود مبهما، والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما، وأبو مروان قد انتشى، وجال في ميدان الأندلس ومشى، وبُرد خاطره قد دبجه السرور ووشى، فأقلقه ذلك المغيب والالتياح، وأنطقه ذلك السرور والارتياح، فقال:

أرى بدر السماء يلوح حينا فيبدو ثم يلتحف السحابا

وذلك أنه لما تبدى وأبصر وجهك استحيا فغابا

مقال لو نمى عندي إليه لراجعني بذا حقا وجوابا)) [45] .

ويبلغ هذا الخبر مسامع ابن سعيد فيصرح بشرب الجزيري، يقول:((وشرب ليلة مع المنصور فكان ما أوجب أن ارتجل)) [46]. كما كان الحاجب المنصور يصحب الجزيري فيمن يصحب من قواد ووزراء وأدباء وشعراء، وقد ذكره ابن الخطيب ضمن هذه الطائفة، ((الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري))[47]، وذلك ليسجلوا مآثر المنصور ومفاخره، وللجزيري شعر يمدحه فيه في حله وترحاله، و نثر في وصف بعض جوانب الطبيعة الطبيعية والاصطناعية، ورسائل مختلفة الموضوعات –وما وصلنا منها إلا القليل.

4 – سجن الجزيري:

لا تقل مأساة أبي مروان عبد الملك الجزيري في سجنه عن مأساة المصحفي، فكلاهما سقط من القمة إلى الحضيض.

وقد سجن الجزيري مرتين أولاهما في عهد المنصور، والثانية في عهد ابنه عبد الملك الظفر، ولقي حتفه في السجن كما حدث للمصحفي من قبل كما سنرى.

أما سبب سجن الجزيري الأول فهو اغتراره بنفسه وظنه انه صار يحتل المكانة الرفيعة، وأن المنصور لا يستطيع الاستغناء عنه، وهذا إذا نظرنا إلى الفترة الزمنية التي فضاها في كنفه، والتي تزيد عن العقدين، إذ صار مقربا عنده ومنادما له، وغدا كاتبه الأول ورئيس ديوان الإنشاء لديه، فقد عتب عليه المنصور إلى درجة الغضب، وسخط عليه ثم سجنه في المطبق بالزاهرة مدة، لأنه كان يزري بغيره من الكتاب ((وكان أكثر من يشركه أعطالا من الآداب العربية لتوفرهم على علم العدد وانهماكهم في التعاليم الديوانية التي استدروا بها الجباية، وحصَّلوا على المراتب العالية، فكان الجزيري يزري بهم، ويحب الاشتمال على ابن أبي عامر، ويتصور فرط حاجته عليه في الإنشاء ولم يكن شأنهم، فسخط عليه المنصو، وأقصاه عن حضرته على فرط حاجته إلى خدمته))[48].

وقد سجن المنصور الجزيري ليكون درسا نافعا له، ومكافأة للذنب الذي اقترفه، وقد استعطفه الجزيري بالشعر والنثر، واحتفظ لنا ابن سعيد بجزء من رسالة في هذا الموضوع سنوردها فيما بعد.

ويشير ابن بسام إلى رسائل شعرية ونثرية كثيرة أرسلها الجزيري كانت لا تنفذ إلى قلب المنصور حتى وجدت إحداها سبيلا إليه، يقول:((وعتب عليه المنصور وسجنه في مطبق الزاهرة واستعطفه برسائل وأشعار عدة، فلم يسمع منه، ثم صفح بعد عنه، فكتب إليه الجزيري:

عجبت من عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه مِنّهْ

كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنه

فسرّ المنصور بذلك، وصرفه إلى حاله، ورد عليه ما كان اعتقل من ماله)) [49].

عفا المنصور على وزيره عبد الملك الجزيري وأحسن إليه، وظل رئيسا لديوان الرسائل إلى أن توفي المنصور، قال ابن الأبار:((ولم يزل يتولى ديوان الرسائل إلى أن هلك المنصور))[50].

وأما سجن الجزيري الثاني في عهد عبد الملك المظفر فلم يدم طويلا إذ سرعان ما قتل في السجن من قبل قوم من السودان دخلوا عليه في مطبقه ((وخنقوه، وأشيع موته، وأخرج ميتا بعد أيام، وأسلم إلى أهله ولا أثر به، ودفن في شوال سنة أربع وتسعين. فصُرع منه –رحمه الله– يومئذ فارس نثر ونظام، ومزق بقتله وشي كلام، وكان يشبه في ذكائه وأدبه مع عبقرية الطبع، وكثرة الضر وقلة النفع، محمد بن الزيات [51] في ذلك الصقع)) [52].

يلقى عبد الملك الجزيري ما لقيه قبله الحاجب المصحفي على يد المنصور ابن أبي عامر، فهو يلقى المصير نفسه على يد المظفر بن المنصور سنة 394 هـ في السجن ((توفي بالمطبق في سخطة المظفر عبد الملك بن أبي عامر عليه سنة أربع وتسعين وثلاثمائة)) [53]، وتبقى أشعاره تجوب الآفاق، وأما رسائله فإنها ترفعه إلى مصاف الفطاحل البلغاء كابن الزيات وزير المعتصم والواثق العباسيين. وسمات نثر الجزيري:

نال الجزيري إعجاب العلماء والأدباء والشعراء من العامة والخاصة مكانة مرموقة لما يمتلكه من موهبة شعرية ونثرية، وبديهة وقادة، في حياته وبعدها، ولعل أول إعجاب به كان من المنصور بن أبي عامر –فيما تقدم مع صاعد البغدادي– إذ قال له المنصور: ((لله درك يا أبا مروان قسناك بأهل العراق ففضلتهم فبمن تقاس بعد))[54]، وكان هذا الإعجاب بداية للتتدرج في سلم المناصب العليا.

وأول إعجاب أسبغه عليه بعد وفاته كان من ابن حيان الأندلسي إذ ذكر أنه بوفاته((صُرع منه –رحمه الله– يومئذ فارسُ نثر ونظام، ومزق بقتله وشي كلام)) [55]، وذكر أيضا أنه ((لم يخلف مثله كتابة وخطابة وبلاغة وشعرا، وفهما ومعرفة، وبه خُتم بلغاء كتاب الأندلس – رحمه الله))[56].

وينعته الحميدي بهذه الصورة الكامله من الثناء، يقول:((وزير من وزراء الدولة العامرية، وكاتب من كتابها، عالم، أديب، شاعر، كثير الشعر، غزير المادة، معدود في أكابر البلغاء، ومن ذوي البديهة في ذلك)) [57] .

ويصفه ابن خاقان، فيقول:((علم من أعلام الزمان، وعين من أعيان البيان، باهر الفصاحة، طاهر الجناب والساحة، تولى التحبير أيام المنصور والإنشاء))[58].

وقد وضعه ابن سعيد في كتابه المقتطف في ((الخميلة الثالثة المشتملة على ((النثر الممتع))، ووضع كتّاب الأندلس القدامى في الطبقة الثانية ((المجتمع في أسلوب ترسل القدماء من كتّاب الأندلس))[59].

وفي مجال النقد قدمه ابن سعيد في الرايات على كل كتّاب المائة الرابعة، وهذا فصل يختص بمن تيقنت أنه من الأندلس[60]، وفي المغرب، أورد أنه ((كان يشبه بمحمد بن عبد الملك الزيات في البلاغة والعبقرية)) [61].

وقد أعجب الحميري بنثره كثيرا، هذا الإعجاب رغبه في أن يقدم لرسالة الجزيري عن بنفسج العامرية فيصفها بأنها ((رسالة موصولة بالشعر جمالها باهر وكمالها ظاهر)) [62]، ويعلق على رسالته في وصف بهار العامرية، بقوله: ((ولا نحتاج إلى ذكر أكثر من هذا المدح كما لا يحتاج إلى إطراء النظم والنثر بأكثر من أنهما حلال في السحر))[63].

ويذكر ابن بسام شعر الجزيري الذي ورد في النثر، فيقول: ((مما اندرج له في أثناء نثره الذي ملُح فيه))[64].

ومن المحدثين نجد إحسان عباس الذي يفضل الجزيري ويشيد بزمن الدولة العامرية، بقوله: ((وفيها ظهر أكابر الكتاب الناثرين ومنهم:

1 – ابن برد الأكبر .

2 – عبد الملك بن إدريس الجزيري.

3 – ابن دراج القسطلي)) [65].

ويضيف قائلا : ((وفي طليعة هذه الطبقة من الناثرين ابن الجزيري وابن برد الأكبر وابن دراج)) [66].

أما أسلوبه النثري العام فإنه يتسم بالسرعة والبديهة ، فقد كان الجزيري ((من ذوي البديهة))[67]، وأما ابن دراج فقد كان كاتبا مروِّيا لا ينشئ إلا بعد الجهد والتنقيح والتجويد، ومما يؤكد هذا ما ذكره الحميدي عن ابن حزم أنه قال : ((وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنت ياقوب [68]... استدعي أبو عامر أحمد بن دراج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري، وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال، فأما ابن الجزيري فقال: سمعا وطاعة، وأما ابن دراج فقال: لا يتم لي ذلك في اقل من يومين أو ثلاثة، وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة))[69].

ويضيف الحميدي القول: ((فخرج الأمر على ابن الجزيري بالشروع في ذلك فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك، وقيل لابن دراج افعل ذلك على اختيارك، فقد فسح لك فيه، ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح، وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، بأحسن وصف، وأبدع وصف، فاستحسنت ووقع الإعجاب بها، ولم تزل متداولة إلى الآن، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر))[70].

يتضح مما تقدم أن أسلوب الجزيري كان يتسم بالسرعة والبديهة إلا أنه ضاع رغم كثرته، على عكس أسلوب ابن دراج فإنه يتسم بالروية ، فبقي إلى عهد الحميدي لأن الذوق العام كان يميل إلى التنوق ، وإحسان عباس كان يؤثر أسلوب نثر الجزيري البسيط العفوي فيقول : ((وهذا الأسلوب في رأيي أليق بالمقام، ولكن التنوق في الكتابة غلب حتى على الرسائل الديوانية)) [71].

لقد أجمع المترجمون على أن عبد الملك الجزيري كانت له ((رسائل وأشعار كثيرة ومدونة)) [72]، غير أن نثره وشعره لم يبق منهما إلا القليل، وأسلوبه متميز عن سائر كتاب عصره في رسائله التي تتسم بالجدة والطرافة، ولكنها ضاعت ولم يبق منها إلى النزر اليسير، ولو وصلتنا كاملة لكانت الصورة أكمل حول سمات نثر كاتبنا وشاعرنا، كما حددها القدماء والمحدثون الذين ترجموا له أو نقدوه أو أشاروا إلى شعره ونثره.

فمن هذا القليل الذي حفظ لنا من نثره يتمثل في الرسائل الوصفية، وهي تلك ((الرسائل التي تناولت فن الوصف تناولا مستقلا، فهو لون جديد في الموضوع والشكل، وهو يتمثل في تلك الرسائل التي كتبت على ألسنة الورود والأزهار، ويفضل فيها الكاتب وردا بعينه على غيره، وتقوم هذه الرسائل على أساس التفاخر والمناظرة والجدل والنقاش بين الورود والأزهار، كل يبدي محاسنه ويفخر بصفاته)) [73].

ولعل هذه الرسائل تكون خاصة بغرض الوصف ولا تتعداه، وقد تكون موجهة إلى غرض آخر هو المديح غالبا، ومن النوع الثاني ما تبقى من رسائل الجزيري الوصفية، فقد وصلت إلينا رسالتان وصفيتان، أولاهما كتبها إلى المنصور بن أبي عامر آثر فيها بنفسج العامرية عن النرجس والبهار، وذلك يوم عيد الضحى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، قال: ((منح الله مولاي صدق النظر، وعرفه جلية الخبر، وأطال مدته، ووصل سلامته وعزته، إذا ترافعت الخصوم– أيد الله المنصور مولاي– في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فإليك مفزعُها، وأنت المقْنَع في فصل القضية بينها، لاستيلائك على المفاخر بأسرها، وعلمك بسرِّها وجهرها، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنها والفخرُ بمشابهها كل مذهب، وما منها إلا ذو فضيلة، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعرف من الغمام الذي يسقينا، فإن كانا قد تشبَّها في شعريْهما المرتفعين إلى مولاي – أبقاه الله وأيده– ببعض ما في الأرض من جواهر الأرض ومصابيح السماء، وهي من الموات الصامت، فإني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان، وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه، وأنفس ما رُكِّب فيه من مواد حياته مع إني أعطر منهما عطرا، وأحمد خُبْرا، وأكرمُ إمتاعا، شاهدا وغائبا، ويانعا وذابلا، وكلاهما لا يمتعك إلا ريثَ ما يبدو للعيون، ويسلم من الذبول، ثم تستكرِه الأنوفُ شمَّه، و تستدفَع الأكُفُّ ضمه فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطبا، وادِّخاري في خزائن

الملوك جافًّا، وتفضيلي على ألسنة الحكماء، وتصريفي في منافع الأعضاء، وإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي فلا غرو أن الوشي ضعيف، والهوى لطيف، والمسك خفيف.

وليس المجد يدرك بالصراع

كما قال حكيم الشعراء، وقد أودعتُ – أيد الله المنصور – قوافي الشعر من وصف مُشابهي ما أودعاه من وصف مشابهها، وحضرتُ بنفسي لِئَلاَّ أغيبَ من حضرتهما. فقديما فضلوا الحاضر وإن كان مفضولا. ولهذا قالوا ((ألذ الطعام ما حضر لوقته)) و((أشعر الناس من أنت في شعره)) ولمولاي – أيده الله – أن يعدل باختياره الصحيح، ويفصل بحكمه العدل، إن شاء الله. والشعر:

شهدت لنوار البنفسج ألسُن ... من لونه الأحوى ومن أيناعه
بمَشابه الشَّعَر الأثيث أعاره ... قمرُ الجبين الصلْت نورُ شعاعه
و لربما جف النجيع من الطُّلى ... بصوارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه ... لا في روائحه و طيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا ... حتى وضحن بنهجه و شراعه
أمَّا نداه فهو صنف للحيا ... في صوبه لم أعْن في إقلاعه
في سيفه قصر لطول نِجاده ... وكمال ساعده وفُسحة باعه)) [74].

سمات نثر الشاعر الكاتب الجزيري :

1 – جدة فن الرسائل الوصفية:

سبق الجزيري غيره من الشعراء الكتاب إلى فن الرسائل الوصفية ، فعلي بن محمد يعدها أول رسالة للنثر البياني يقدم لها بقوله: ((إن الرسالة التي يظهر فيها لأول مرة هذا النثر البياني جليا واضحا لا تخطئه العين ولا يختلف عليه اثنان إنما هي رسالة أبي مروان الجزيري)) [75]، ويؤكد إحسان عباس هذا السبق والاستقلال، بقوله: ((وفي هذه الفترة يستقل النثر الفني في بعض أحواله عن الكتابة الديوانية،ويتخذ له موضوعات من الحياة تشبه الموضوعات التي يدور حولها الشعر وبخاصة الوصف) [76].

ويشيد علي بن محمد في تعقيبه على هذه الرسالة بنثر الجزيري أيما إشادة، وينوه بسبقه إلى ولوج باب النثر الفني أي أنه رائد النثر الفني في الأندلس، يقول:((مما لا شك فيه أن النثر قد انتقل إلى مرحلة جديدة من تطوره مع الجزيري ورسالته هذه، وقد انتبه القدماء فيما يبدو إلى طبيعة هذا النثر وطرافته، ولكنهم لم يدركوا كل أبعاده.... والحق أن الجزيري قد ملَّح بشيئين:

الأول: هذه الطريقة في الحديث عن الزهور بالنثر، وهو حديث لم تتعود آذان الأندلسيين سماعهّ إلا ضمن بحور الشعر و قوافيه .

الثاني: أنه نقل الحوار الذي كان معروفا بين البشر إلى النباتات ، فأجراه بين الزهور في مفاخرة حماسية ينتصر فيها كل نوع لأخص خصائصه، ويثني فيها على نفسه بأحسن أوصافه، وسيدخل النثر في القرن الخامس هذين البابين ويكون فيهما شأن كبير.

هذه إذن خطوة كبيرة حاسمة خطاها النثر، ليس في تجديد قوالبه وأنماطه كما كانت الحال طوال القرون الثلاثة التي استعرضنا أهم ملامح تطوره فيها، ولكن في تغيير طبيعته بالذات، ولعل القرن الرابع لم يشهد، في ميدان الأدب تحولا يشبه هذا أو يضاهيه[77]

2 – الميل في الرسالة إلى المديح :

الكاتب يميل في رسالته إلى المديح، حيث يقول على لسان البنفسج مخاطبا المنصور بن أبي عامر: ((إذا ترافعت الخصوم –أيد الله– مولاي المنصور في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فإليك مفزعها، وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسرّها وجهرها))[78].

وبهذا الميل إلى المديح يعكس الجزيري في رسالته جانبا من التنافس الذي يحدث بين الكتّاب في البلاطات، والكاتب يرجو التميز على أقرانه، ويوضح فضله على غيره من كتّاب القصر، فيقول على لسان البنفسج: ((إني أعطر منهما عِطرا، وأحمد خُبْرا وأكرم إمتاعا شاهدا أو غائبا))[79]

3 – المفاضلة بين أكثر من زهرة :

اتسمت رسالة الجزيري بأنها في ظاهرها كتبت في المفاضلة على لسان الأزهار، ولكن الطريف حقا أنه كتبها في المفاضلة بين بنات المنصور بن أبي عامر ((الذي كان قد سمى بناته بأسماء الزهور، فنظم الشعراء في وصف الزهور قصائد تبين فضيلة كل نوع منها، وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه)) [(80)]، وكان ابن بسام قد قدم لرسالة الجزيري هذه بقوله:((ما اندرج له في أثناء نثره الذي ملُح فيه، مخاطبته، على ألسنة كرائمه، بزهور رياضه))[(81)]. وقد أشار علي بن محمد –كما تقدم– في نقل الحوار بين البشر إلى المفاخرة والمفاضلة بين الزهور، وأجاد الجزيري في ذلك.

4 – التنويع بين النثر والشعر :

اتسمت رسالة الجزيري الوصفية بتضمينها مقطوعة شعرية من نظمه هو وقد أشار الكلاعي إلى ذلك بقوله: ((كان المجيد كثيرا ما يضمن رسائله أشعاره)) [(82)]، وكان يفعل ذلك للتدليل على ما كان يسوقه من معان، أو للتأكيد على ما يبسطه من أفكار، ولعل إجادة الكاتب في تميز هذه الرسالة كان يلائم محتواها، وهو المفاضلة بين البنفسج والنرجس والبهار ((وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابهها كل مذهب، وما منهما إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعرف من الغمام الذي يسقينا)) [(83)].

ولندرج رسالة ثانية تماثلها في الموضوع وبعض السمات حتى تتضح الصورة أكثر، وهي في المديح وردت على لسان بهار العامرية، و قد تفرد بإيرادها صاحب البديع في وصف الربيع يقول:((وكتب الوزير الكاتب أبو مروان بن الجزيري إلى المنصور محمد أبي عامر بن أبي عامر بأرملاط عن بهار العامرية في كانون الأول الكائن في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة:

بسم الله الرحمن الرحيم –أطال الله بقاء المنصور مولاي، وأدام عزه، وهنأه سروره، وسوغه نعمه عنده–إني– أيد الله منصور مولاي– لما استقلَّت بزهرتها مائلةُ قُضُبي، وتنبهتْ من سِنتها نائمة جفوني، ونمَّت بعطرها ساطعة روائحي، وافترشتُ ديباج حديقة بكَّر وسْميَّها، وتتابع وليّها، فالتقى ثَرياها و﴿أخذت الأرض زُخرفها وازّيّنت ﴾ وطاب صعيدُها حتى كان ترابَها فَتيتُ المسك، أو سحيق الكافور عنَّ لي زهور بحسني وارتياح لحالي، وإعجاب بمكاني، وشاركتُ ذلك دواعي هزة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنكَ حين فارقتْ محلي، وآثرت بالزيارة غيري، فحرَّكْن مني ساكنا، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطرا، فأجابني منه ما ضمّنتُه غرائب وصفي وأهديتُه إلى مولاي مع محاسن شخصي الذي هو غرس همته، وابن نعمته، لعل فعلي أن يوافق منه قبولا، ويَقسم لي من حسن تذكرة نصيبا بواسع تفضله وسابغ تطوله وكريم تحاوره. والشعر:

حدقُ الحسان تَقر لي و تَغار وتضِل في صِفة النُّهى تحارُ
طلعتِ على قُضبي عيونُ كمائمي مثل العيون تحفها الأشفار
و أخصُّ شيءٍ بي إذا شبَّهتني دُرر تَنطَّق سَلْكَها دينار
أهدت له قُضبُ الزُّمُرُّدِ ساقه وحباه أنفس عطره العطَّار
أنا نرجس حقًّا بهرت عقولهم ببديع تركيبي فقيل بهار
إني لمن زمن الربيع تَرُبُّني قِطع الرياض و تُلقِح الأمطار
فأكون عطرا للأنوف و منظرا بهجا تهافتُ نحوه الأبصار
و تحية بين النَّدام تُحَثُّ لي نُخَب الكؤوس وتَنطق الأوتار
وأقلُّ جُود العامري محمد أَلْف حكتْ حَدَقي و تلك نُضار
عشرٌ تُعد من المِئين لأنْمُل عشرٍ يُصرّفُها و هنَّ بِحار)) [84]

إذا فالرسالة موجهة لمديح المنصور بن أبي عامر الذي كان يشجع الشعراء والكتاب على تأليف قطع في وصف الزهور، بل كان شغوفا بها وفي وصفها، مما دفع به إلى أن زين قصره ((بشقائق مصنوعة من جميع النواوير، ووُضع على السقائف لُعَب من ياسمين في شكل الجواري))[85]، ((وكان إلى ناحية من السقائف سفينة فيها جارية من النوار)) [86]، وقد أعجبته قصيدة في وصف نورة من النواوير فكتبها بخط يده[87]، وأمر لصاحب هذه البديهة بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له في كل شهر ثلاثين دينارا، وألحقه بالندماء [88] .

إذا هذه الرسالة اتسمت بالجدة والطرافة، وهي موجهة إلى مديح المنصور المولع بوصف الأزهار، ويكافئ كل من أجاد وصفها، والجزيري تمكن من ذلك نثرا وشعرا، فكان الاشتراك مع الرسالة الأولى في هذه السمات، وسمات أخرى كما سنرى.

5 – سهولة الألفاظ ووضوحها :

عرف عن النثر وكذا الشعر الأندلسي أنه سهل الألفاظ بسيط التراكيب، واضح الأسلوب، عذب الموسيقى، وهذا ما يجب أن يتسم به، إذا أخذنا بعين الاعتبار البيئة الأندلسية بما فيها الطبيعة الساحرة التي وجد الشعراء والكتّاب الأندلسيون أنفسهم في أحضانها، وواضح ما للبيئة من أثر في الأسلوب[89]، وإذا أعرنا اهتماما لطبيعة الشعب الأندلسي الميال إلى التبسُّط والتحرر والانفتاح، حيث ((أن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع)) [90] كما يقول الثعالبي، نجد أن الجزيري يسير في هذا المنحى، فهذا حازم عبد الله يعلق على الرسالة الوصفية الأولى، والثانية تجري على غرارها، مبينا خصائصها ومزاياها، يقول: ((ولعل ألفاظ هذه القطعة النثرية بما تمتاز به من سمات السهولة واليسر وموافقتها للطبع والذوق، وتلاؤم عباراتها وانسجام ألفاظها ومتانتها مما يدل على عناية أدبية وقدرة فنية بلاغية تترجم الأشياء والأوصاف وتجري الترجمة بطريق الحوار))[91].

إذا فرسالتا الجزيري تتسمان بالسهولة واليسر، فالألفاظ سهلة والمفردات واضحة ومعبرة عما يشعر به الكاتب من نشوة واقتناع واطمئنان.

نجد مثل هذه السهولة في الألفاظ، والوضوح في المفردات في الرسالتين للجزيري ففي الأولى، يقول:((منح الله مولاي صدق النظر، وعرفه جليّة الخبر، وأطال مدته، ووصل سلامته وعزته...إذا تدافعت الخصوم –أيد الله المنصور مولاي– في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها، فعليك مفزعها وأنت المقنَع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها، وعلمك بسرها وجهرها)) [(92)] .

والثانية التي افتتحها بالبسملة، يقول فيها:((بسم الله الرحمن الرحيم– أطال الله بقاء المنصور مولاي، وأدام عزه، وهنأه سروره، وسوغه نعمه عنده – إني– أيد الله المنصور مولاي – لما استقلتْ بزهرتها مائلةُ قُضُبي، وتنبَّهتْ من سِنتها نائمة جفوني)) [(93)] .

فلقد جاءت ألفاظ هاتين الرسالتين سهلة واضحة منسجمة مع غرضيهما معبرتين عن سمات الجمال في أيام الربيع البهيجة، ودالة على ما كان يحس به الجزيري من فرح وسرور عظيمين بسحر الطبيعة، وبهما وغيرهما استأثر بولاء سيده ومولاه بالمدح والثناء، وقد اتخذ الجزيري ضمير الغالب أحيانا في مخاطبته، في المفاضلة والمحاورة للكشف عن سر جمال كل زهرة وصفها، وفي الحقيقة ما هي إلا وصف لبنات المنصور بهذه اللغة الواضحة.

ومن الموضوعات التي عالجتها الرسائل الديوانية، الأمور الحربية، وقد تعددت أغراض الرسائل الحربية بحسب المواقف التي تمليها طبيعة الظروف الحربية السائدة، وللجزيري رسالة في فتح شنت ياقوب، ولكنها ضاعت، وقد تقدم الحديث عنها .وأما عن ضياع رسائله النثرية، ((رغم أنها تعد وثائق تاريخية وأدبية على جانب كبير من القيمة، ذلك أنه لم يتح لها رواة ينقلونها، وكتّاب يدونونها)) [94]، فإن مرده – في نظري– إلى شغف الأندلسيين بتراث المشارقة، مما أدى إلى ضعف عنايتهم بأدبهم وتدوينه، يقول ابن بسام: ((ألا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم رجوع الحديث إلى قتَادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنم، وتلو ذلك كتابا محكما: وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القَصِيَّة، ومناخ الرِذِيّة، ولا يعمر بها جَنانُ ولا خَلَد، ولا يُصَرَّف فيها لسان ولا يد)) [95].

يستخلص من حديث ابن بسام عدم اهتمام الأندلسيين، رواة وكتابا ، بتدوين أدبهم، فكان فقدان كثير من الرسائل، وبخاصة رسائل الجزيري التي لم يصلنا منها إلا فصل من رسالة أنشاها بأمر من الحاجب المنصور بعد انتهاء حرب صائفة سنة 390 هـ يعاتب فيها جنده الذين نكصوا على أعقابهم في حربهم مع النصارى، وأمر قواد الجند باستنساخ الرسالة ليقرؤوها على الجند كافة[96]:

ومن فصولها: ((وكثيرا ما فرط من قولكم، وسبق من عزمهم، أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرجال على العَجول، فحين جاءكم شانجه بالأمنية، وقاتلكم بالشرطيَّة، وظهرت لكم رعلةُ الطائفة النصرانية، أنكرتم ما عرفتم، ونفرتم ما ألفت، حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الرئال عن المقتنصين! فألحقتم العار بأنفسكم، بعد اختياري لكم؛ وطرقتم الشر على أعناقكم، وضيعتم حرماتكم، وأحضرتم ذمّتكم؛ فلا نعمتي رعيتم، ولا تزييني حفظتم، ولا وجوهكم أبقيتم، ولا غضب الله ورسوله أتقيتم! فقد قال الله عز وجل:(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً، فاثْبُتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تُفلحون)[97]، وقال : ﴿ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَهُ إلا مُتَحرِّفا لقتال أو متحيزا إلا فئة فقد باء بغضبٍ و مأواه جهنمُ وبئس المصيرُ ﴾[98]، ففيما ولما كان انحيازكم، أشكا في وعد ربكم؟ أم خورا في أصل طبعكم؟ أم عجزا عن دفع باطلهم بحقكم؟ ما كان إلا لسفهِ أحلامكم وسوء نظركم في عاقبة أموركم؟ يا أحلام الأطفال، وأخلاق الرجال! أنجوتم إلا دار الفناء، التي لا تنقطع همومُها ولا ترتفع همومها؟ وتركتم النزوع إلا دار البقاء، التي لا ينصرم نعيمها؟ لولا رجال من الله صدقوا، فرفضوا عنكم العار بجلادهم وحرروا رقابكم من الذل بجهادهم، وبذَّلوا في الله ما بذلوه بحكم القرآن، والرعاية لذمم الدين والسلطان، لبرئتُ من جماعتكم، وأوجبتُ المؤاخذة على كافّتكم، وخرجتُ الإمام والأمة عن عهدتكم، ونصحتُ المسلمين في الاستبدال منكم بغيركم! ولن

أعدمْ من الله العلي العظيم عاجلَ نصر وحسن عقبى لعباده المخلصين، وأوليائه المتقين! فلابد أن ينصر دينه بما شاء(ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (99))) (100).

لقد تحدث الجزيري عن القواد والجنود الذين أبدوا رغبتهم في الجهاد، وولوا أدبارهم حين واجهوا أعداءهم النصارى في غزوة جرْبيرة وشبههم بفرار فراخ النعام الصغيرة من أسود الغاب الضارية، وبالظباء التي ولت خائفة من الصيادين، وهي صورة تحمل طابع التعريض والسخرية بالفارين، وإن كانت تحمل في الوقت نفسه ملامح من المرارة، ومع ذلك فالمنصور أحرز نصرا باهرا على أعدائه النصارى بوجود رجال صادقين جاهدوا رفضا للعار، ورعاية لذمم الدين والسلطان .

6 – التركيز والإيجاز:

اتسمت هذه الرسالة بالتركيز والإيجاز لأنها نابعة من طبيعة الموضوع، والظروف التي قيلت فيها، ومراعاة للهدف المرجو منها، إلى جانب السرعة، وعدم توافر الوقت الكافي، فقد لجأ الجزيري فيها–رغم عدم وصولها كاملة– إلى التركيز والإيجاز، وأدت غرضها المطلوب، وكذا الرسالة التي كتبها من سجنه إلى المنصور، يستعطفه فيها، وهي أيضا توحي بأنها موجزة –رغم أنها لم تصل إلينا كاملة، كما سيأتي ما بقي منها–ومركزة لأنها تفي بغرضها المقصود، وهو أن يطلع عليها الحاجب المنصور في أقصر وقت وأقل جهد .

7 – الاقتباس من القرآن الكريم:

اتسمت هذه الرسالة بالاقتباس من القرآن الكريم، وتضمين آياته الكريمة حينا ، ومعنى حينا آخر، وهذا دليل على البيان والفصاحة لدى الجزيري، لأن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك، فهي رسالة سياسية موضوعها الجهاد ضد النصارى، ومن الآيات التي اقتبسها، فقد قال الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تُفلحون)[101] وقال تعالى: (ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَهُ إلا مُتَحرِّفا لقتال أو متحيزا إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ ومأواه جهنمُ وبئس المصيرُ) (102) وختم الجزيري الرسالة مضمنا إياها بمعاني القرآن، بقوله: فلابد أن ينصر دينه بما شاء، ثم أنهاها بقوله تعالى: (ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (103).

ومن أمثلة معاني القرآن الكريم وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : وعد ربكم، دفعا باطلهم بحقكم، عاقبة أموركم، رجال من الله صدقوا، دار الفناء، دار البقاء، حكم القرآن، الجهاد، المسلمين، ذمم الدين

هذا الاقتباس من القرآن الكريم، لفظا ومعنى، دليل على تشبع الكاتب الجزيري بالثقافة الدينية، وحسن استفادته من المحفوظ القرآني وقدرته على استعمال آياته وألفاظه ومعانيه وصوره في المعنى المناسب، بشكل تلقائي يدل على استيعابه لروح القرآن الكريم، وكذا وورود ألفاظ استقاها الكاتب من سنة رسول الله وصحابته، لا يتسع المقام لتوضيحها.

8 – الارتجال:

يعد حرص الأندلسيين على الارتجال في الشعر والنثر، واهتمامهم به دلالة على إجلالهم له، وتقديرهم لأصحابه، بل لعلهم يعتبرونه أحد مقاييس البراعة والتقدم في الشعر والنثر على السواء، لذلك نجد المنصور بن أبي عامر يؤثر الجزيري ، ويأمره بالارتجال، فيفعل، ولا يبرح مكانه حتى يكمل كتبه في ذلك – كما تقدم من إشارات – ولكن لم تصلنا للأسباب التي ذكرنا ، وهذا الارتجال يدل على سرعة وبداهة الجزيري، بإقرار المترجمن له، ومدى قدرته على امتلاك أدوات الكتابة في مجال النثر البياني أو الفني بأسلوب مقنع وممتع، ولغة سهلة أو جزلة حسب طبيعة الموضوع المطلوب أو المطروق ؛فالرسلة الوصفية تدبج بلغة سهلة وواضحة، لأن معين الجزيري الطبيعة وما تزخر به من صور الجمال، ولغة الرسائل في موضوعات الحرب، فهي جزلة وغريبة إلى حد ما، وذلك طبيعى، لأن الموضوع يحتاج إلى أسلوب قوي، ولغة فخمة مجلجلة تغلب عليها الثقافة الدينية، نصا ومعنى، يقتدي بها المجاهدون المخلصون، وتقرع أسماع المتقاعسين والفارين من الحرب كما تقدم.

وأما الرسالة الأخيرة للجزيري، فهي تصور عواطفه وانفعالاته ومشاعره الخاصة، وتتدرج ضمن الرسائل الإخوانية، وموضوعها الشكوى والاستعطاف.

لقد زج المنصور بن أبي عامر بكاتبه الجزيري في السجن – كما تقدم – ولعل ما قاله فيه هذه الرسالة الفائقة الأهمية أورد ابن سعيد شيئا منها، يقول: ((عبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور بن أبي عامر، كتب عن نفسه إلى مخدومه وقد سخط عليه:

وبعد حمد الله، المحمود على السراء والضراء، المسلم لحكم الله وقضائه في السخط والرضا، فقد علم سيدي ورب النعمة علي، أن النفوس خيل حلبة تتسابق إلى الغايات التي قدرت لها، والسعيد سعيد في بطن أمه، والشقي شقي في بطن أمه، وقد كان من قدر الله سبحانه إنعامه علي مرة جررت بها ذيول العز في بساط الإذلال إلى أن طالت فعثرت فيها بالاغترار وسابق الأقدار عثرة لا تستقال إلا بالمعتاد من كرمك وإغضائك عن هفوات صنائعك، والحاجب المنصور –أدام الله حلو نصره– يعلم أن ريَّض الخيل بعد الأدب أمتع، والمهيض بعد الجبر أصلح))[104].

يعترف الجزيري بالاغترار فضلا عن كون ذلك قدرا من الأقدار، وهذه الرسالة تميل إلى التفاؤل في فحواها، وإلى الاتزان في أسلوبها، حيث التسليم لقضاء الله وقدره على جميع الأحوال، والمنطقية في عرض القضية فالبدء بذكر جبلة النفوس ثم عرض قضيته، والختام بالإشارة على المنصور بأنه إذا أطلقه وجبر كسره فإنه هو الفائز، لأن الجزيري سيكون خيرا مما كان عليه.

الخاتمة:

سطع نجم الجزيري ككاتب في ربوع الأندلس، وطار ذكره إلى أرجاء المشرق، لسرعة بديهته، وقوة حافظته، وتمكنه من امتلاكه لأدوات الكتابة الفنية، وبخاصة في موضوعات الرسائل الوصفية والحربية والذاتية، فتميز بالسبق في جدة الموضوعات والميل بها إلى المديح، والمفاضلة بين الأزهار، والتنويع بين النثر والشعر، واعتماده الأسلوب السهل الملائم للمقام، وانتقائه لألفاظ سهلة حينا وجزلة حينا آخر، حسب طبيعة الموضوع المطروق، واقتداره على توظيف محفوظه الثقافي والديني، في شعره ونثره، فبز مِن أقرانه لقب الشاعر الكاتب بح، كيف لا ؟ وهو من خاصة الحاجب المنصور الناقد الصارم، شاعرا وكاتبا، ونال بنثره إعجابه وتقديره، ولا يستغني عنه، حتى في آخر يوم وفاته، يذكر ابن بسام ذلك بقوله:((هجر الأطباء في علته تلك لاختلافهم فيها واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيري))[105].

يعد الجزيري أول كاتب–في نظرنا– وضع البذرة الأولى لفن الرسائل الوصفية، ومن الذين ساهموا في استقلال النثر الفني الأندلسي عن التقاليد المشرقية، شكلا ومضمونا، إلى حد كبي.

الإحالات

[1] – من أهم مراجع التاريخ الأندلسي في هذا العصر: عنان، محمد عبد الله. دولة الإسلام في الأندلس، العادي، أحمد مختار. في تاريخ المغرب والأندلس. سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة بقرطبة. بيضون. الدولة العربية في إسبانية منذ الفتح إلى سقوط الخلافة.

[2] – انظر: فورار امحمد بن لخضر. الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية(366هـ- 399هـ). رسالة ماجستير. إشراف المرحوم الدكتور جودت الركابي. جامعة قسنطينة. الجزائر.ص4 –6.

[3] – المراكشي، عبد الواحد. المعجب في تلخيص أخبار المغرب.تحقيق محمد سعيد العريان. القاهرة. 1960.28.

[4] – انظر حياة المصحفي: فورار امحمد بن لخضر. ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي الأندلسي. صحيفة دار العلوم. مكتبة زهراء الشرق. القاهرة. العدد 24. ديسمبر.2005. ص 93 – 121 .

[5] – ابن بسام . الذخيرة . تحقيق أحسان عباس . الدار العربية للكتاب . ليبيا – تونس . 1978. ق 4 م 1 ص 66 .

[6] – ابن الخطيب . أعمال الأعلام . تحقيق ليفي بروفنسال . دار المكشوف . لبنان . ط 2 . 1956 . ص 65 ،77 .

[7] – انظر توضيح ذلك : فورار امحمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . 4 – 59 .

[8] – الحميدي . جذوة المقتبس .الدار المصرية للتأليف والترجمة . 1966 . ص 111 .

[9] – ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ج 2 ص 106 .

[10] – المراكشي . المعجب . 83 .

[11] – انظر : ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 14 – 26 ، المقري . نفح الطيب . قيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ج 1 ص 582 – 584 ، ج 3 ص 79 – 81 .

[12] – المقري . المصدر نفسه . 1 : 153 .

[13] – ابن الأثير الجزري . اللباب في تهذيب الأنساب . مكتبة المثنى . د ت . ج 1 ص 278 .

[14] – الفتح بن خاقان . مطمح الأنفس . تحقيق محمد علي شوابكة . مؤسسة الرسالة . بيروت. 1983 .ص 177.

[15] – المقري . نفح الطيب . 1 : 586 .

[16] – ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار المعارف . مصر. 1962 . ص 418.

[17] – ابن بشكوال . الصلة . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة . 1966 . ص 365 .

[18] – ابن حزم . جمهرة انساب العرب . 484

[19] – ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . دار المعارف . مصر . ط 1 . 1963 . ج 2 ص 225 ، المقري . نفح الطيب . 3 : 95 ، 4 : 306 ، ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . دار المعارف . مصر . ط 4 . 1964 . ج 1 ص 204 .

[20] – المراكشي . المعجب . 130 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 321 .

[21] – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 35 ، 69 .
[22] – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 35 ، 69 .
[23] – المصدر نفسه . 2/3 : 677 .
[24] – المصدر نفسه . 1/1 : 218 .
[25] – المصدر نفسه . 2/1 : 607 ، 1/1 : 103 .
[26] – المصدر نفسه . 1/4 : 46 .
[27] – الحميدي . جذوة المقتبس . 289 ، الضبي . بغية الملتمس . دار الكاتب العربي . مصر. 1967 . ص 386 .
[28]–أبو مروان الجزيري الأندلسي. شعره. تحقيقأحمد عبد القادر صلاحية.دار المكتبي.سورية.ط 1. 1997 ص141.
[29] – المصدر نفسه . 32 .
[30] – ابن سعيد . المعرب . 1 : 320 – 321 .
[31] – تقلد االمظفر الحجابة بعد أبيه بين (392 هـ - 399 هـ) .
32 – الحميدي . جذوة المقتبس . 280 .
33 – ابن الكتاني. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس.تحقيق إحسان عباسدار الثقافة.بيروت 1966.ص.317
34 – ابن بشكوال . الصلة . 356 .
35 – الزركلي . الأعلام . 4 : .156
36 –ابن الأبار.الحلة السيراء1: 265 ، فورار امحمد. ما تبقى من شعر المصحفي. مجلة صحيفة دار العلوم..115
37 – ابن الأبار. المصدر نفسه. 1: 267. ابن عذارى . البيان المغرب . تحقيق ح س كولان وليفي بروفنسال. دار القافة. بيروت. ط 4. 1983. ج 2 ص286 ، المقري . نفح الطيب . 1: .601
38–النوشي، حسن أحمد. التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي.دار الجيل .بيروت .ط1.1992. ص.405
39 – هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي، أبو العلاء عالم بالأدب واللغة ، نشا ببغداد وانتقل إلى الأندلس حوالى 380 هـ ، فأكرمه الحاجب المنصور وصنف له كتاب الفصوص على غرار أمالي القالي ، وكافاه عليه بخمسة آلاف دينار . توفي سنة 417 هـ . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . 373 ، ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 2 – 39 ، ابن خلكان . وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . 1968 .ج 2 ص 4 ، السيوطي . بغية الوعاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر القاهرة . ط 2 . 1979 . ج 2 ص 7 – 8 ، المقري . نفح الطيب . 3 : 75 - الزركلي . الأعلام . 1 : 186 – 187 .
40 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 35 – 36 ، ابن سعيد . المغرب . 1 : 322 .
41 – ابن بسام . المصدر نفسه . 1/1 : 103 .
42 – ابن خاقان . مطمح الأنفس . 177 .
43 – المراكشي . المعجب . 30 .
44 – المقري . نفح الطيب . 1: 586 .
45 – ابن خاقان .مطمح الأنفس . 179 – 180 .
46 – ابن سعيد . المغرب . 1 : .322
47 – ابن الخطيب . الإحاطة . 2 : 107. وأورد قائمة فيها أكثر من ثلاثين شاعرا رافقوا المنصور بن أبي عامر في غزوة من غزواته .
48 – ابن الأبار . إعتاب الكتاب . تحقيق صالح الأشتر . مجمع اللغة العربية . دمشق . .1961
49 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4: 47، ابن سعيد . رايات المبرزين وغايات المميزين . تحقيق النعمان عبد المتعال القاضي . مطابع الهرام التجارية . القاهرة . 1973 . ص 126 .
50 – ابن الأبار . إعتاب الكتاب . 196.
51 – محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة بن أبو جعفر المعروف بابن الزيات (173 هـ - 233 هـ) ، وزير المعتصم والواثق العباسيين ، وعالم باللغة و الأدب من بلغاء الكتاب و الشعراء ، نشأ في بيت تجارة في الدسكرة (قرب بغداد) ونبغ فتقدم حتى بلغ الوزارة و عول عليه المعتصم في مهام دولته و كذلك ابنه الواثق ، ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل فلم يفلح ، وولي المتوكل فنكبه و عذبه إلى أن مات ببغداد ، وكان من العقلاء الدهاة ، وفي سيرته قوة وحزم . و له ديوان شعر . الزركلي . الأعلام . 6 : 248.
52 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 52 .
53 – ابن بشكوال . الصلة . 356 – 357 .
54 – انظر : هامش 40 من هذا البحث .
55 – انظر : هامش 52 من هذا البحث .
56 – ابن بشكوال . الصلة . 357 .
57 – الحميدي . جذوة المقتبس . 280 .
58 – ابن خاقان . مطمح الأنفس . 177 .
59 – ابن سعيد . المقتطف من أزاهر الطرف . تحقيق سيد حنفي حسنين . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . 1984 . ص 81 ، 84 ، 85 .
60 – ابن سعيد . رايات المبرزين . 126 .
61 – ابن سعيد . المغرب . 1 : 321 .
62، 63 – الحميري. البديع في وصف الربيع. نشر هنري بيريس المطبعة الاقتصادية.الرباط. ص100،77
64 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 47 .
65 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . دار الثقافة . بيروت . 1981 . ص 329 .
66 – المرجع نفسه . 331 .

67 – الحميدي . جذوة المقتبس . 280 .
68 – شنت ياقوب : العاصمة القديمة لمنطقة جليقية ، وهي الآن من أعمال (لاكرونيا) وفيه الكنيسة المشهورة ، وقد ارتفعت مكانة شنت ياقوب في العصور الوسطى بين المسيحيين في غرب أوربا كله ، حتى أصبحت من أول مراكز الحج بين أمم النصرانية . أما تاريخ غزو المنصور بن أبي عامر لهذه لشنت ياقوب ، فقد كان في سنة 387 هـ . انظر : ابن دراج القسطلي ، أبو عمر. الديوان . تحقيق الطاهر أحمد مكي . المكتب . سورية . ط 2 .ص 373 هامش 1 ، الحميري ، محمد عبد المنعم. الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . دار القلم للطباعـة . بيروت . 1975 . ص 348 .
69 ، 70 – الحميدي . جذوة المقتبس . 112 .
71 – عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي . 332 .
72 – الحميدي . جذوة المقتبس . 280 .
73 – القيسي ، فايز عبد النبي . أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري . دار البشير للنشر والتوزيع . الأردن. ط 1 . 1989 . ص 138 .
74 – الحميري . البديع في وصف الربيع . 78 – 79 .
75 – علي بن محمد . النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط 1 . 1990 . ج 1 ص 195 ، القيسي . أدب الرسائل في الأندلس . 139 .
76 - عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي . 331 .
77 – علي بن محمد . النثر الأدبي الأندلسي . 196 – 197 .
78 ، 79 – الحميري . البديع في وصف الربيع . 78 .
80 – عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي . 111 .
81 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4: 47 .
82 – الكلاعي الإشبيلي ، محمد بن عبد الغفور . إحكام صنعة الكلام . تحقيق محمد رضوان الداية . عالم الكتب . بيروت . ط 2 . 1985. ص 71 .
83 ، 84 – الحميري . البديع في وصف الربيع . 78 .
85 ، 86 ، 87 ، 88 - ابن بسام . الذخيرة . 1/4: 18 ، 19 ، المقري . نفح الطيب . 3: 80، 81 .
89 – الطيب ، عبد الله .المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . دار الفكر . بيروت . 1970 . ج 2 ص 469 .
90 – الثعالبي ، أبو منصور . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الفكر . بيروت . ط 2 . 1973 . ج 4 . ص 6 .
91 – خضر ، حازم عبد الله . النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين . وزارة الثقافة والإعلام . العراق . 1981 . ص 83 .
92 ، 93 – الحميري . البديع في وصف الربيع . 78 ، 98 .
94 – القيسي ، فايز عبد النبي . أدب الرسائل في الأندلس . 99 .
95 – ابن بسام . الذخيرة . 1/1 : 12 .
96 –النباهي المالقي الأندلسي ، أبو الحسن . تاريخ قضاة قرطبة . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي . دار الآفاق الجديدة . بيروت . 1980 . ص 83 ابن الخطيب . أعمال الأعلام . 69 ، 72 .
97 ، 98 ، 99 – سورة الأنفال :45 ، 16 ، وسورة التوبة : 33 .
100 – النباهي . تاريخ قضاة قرطبة . 83 – 84 .
101 ، 102 ، 103 – انظر : هوامش 97 ، 98 ، 99 .
104 – ابن سعيد . المقتطف . 85 – 86 .
105 – ابن بسام . الذخيرة . 1/4 : 74 .